# الطابع القومى
## في الثقافة الأزهرية

( ألقيت فى اليوم الأول من أيام المؤتمر الثقافى العربى الثانى

للدكتور محمـــد البهى

هناك فى التوجيه التربوى نظرتان مختلفتان ، أو اتجاهان متعارضان : اتجاه يهدف إلى تكتل فى نطاق خاص صونا لجماعة معينة أو شعب معين ، وهو مايعرف بالاتجاه القومى ؛ وآخر يرمى إلى تحطيم الفواصل الخاصة بين الجماعات أو الشعوب ، أملا فى خلق وحدة عامة أو اتحاد عام بينها ، حتى يستقر بين الناس جميعاً ما اعتيد تسميته « السلام العام » ، وهـذا الاتجاه هو ما يعرف بالاتجاه العالمى فى التربية والتوجيه

ويقال عن نزعة القومية فى التربية : أنها ظاهرة من ظواهر البدائية فى الجماعة ، لأن مثل هذه النزعة تعتمد على ضرب من المبالغة فى تقويم المميزات الخاصة بجماعة ما والرغبة فى صيانة هذه المميزات ، والتقويم على هذا النحو دخل فيه عندئذ عنصر غير ذاتى ، وهو انتساب نوع من الخصائص للجماعة المعينة ، ولم يقف عند حد جوهر الخصائص ، والمبالغة فى التقويم تنشأ عادة عن ضيق فى أفق التفكير أو عن سطحية النظرة إلى الأشياء ؛ وضيق الأفق ، وكذا سطحية النظرة من أمارات البدائية فى تفكير الفرد والجماعة .

لكن قد يقال : ان الاتجاه القومى فى التربية لا يدل حتما على بدائية فى التفكير ، بل قد يصدر عن حاجة قوية فى الجماعة إلى تكتل ما أثر شعورها بالضعف أو الاضطهاد من جماعة أخرى. والاتجاه فى مقاومة الضعف أو مدافعة الاضطهاد إلى اذكاء الروح القومية عن طريق التنشئة والتربية لايعبر عن بدائية ، بل بالعكس يم عن رقى فى تفكير الجماعة . إذ الشعور بمعنى الجماعة — وهو وراء الأشخاص والأفراد — واتخاذ وسيلة غير حسية فى مقاومة الضعف أو الاضطهاد ، وهو وسيلة التربية هنا ، يدل على تطور فى التفكير .

وسمى كل من المفكرين السياسيين الشرق والغربى ، أو الشيوعى والديمقراطى ، فى وقتنا الحاضر إلى التكتل بتنبيه كل منهما إلى مزاياه الخاصة لا يعد ظاهرة من ظواهر البدائية ، إذ هو وليد العبقرية السياسية وقيادة الجماعات . وهـــو فن لم يصل البدائيون بعد إلى ادراكه فضلا عن ممارسته

وربما كان تصوير الاتجاه القومى فى التربية بأنه نزعة بدائية يتصل بالدعاية التى يباشرها أرباب الاتجاه الآخر عندما يحاولون تبرير وجود اتجاههم ووجوب سيادته .

أما الاتجاه العالمى فقد كثر الحديث عن مزاياه منذ بداية القرن العشرين وقيل فى تفضيله: إنه يدعو إلى الاخوة الانسانية ، يدعو إلى محو الفوارق التى أقامتها التقاليد والعادات بين الأجناس والجماعات ، يدعو إلى إزالة أسباب الحقد من نفوس البشر قاطبة ، يدعو إلى إضعاف العقبات التى تحول دون تمكين الأفراد من استغلال مواهبهم الذهنية أو الاقتصادية أينما وجدوا ، يدعو على وجه الاجمال إلى الحرية والأخاء والمساواة ... إنه من وحى الديمقراطية وهدف الأحرار .

ويجب فى نظر أصحابه ألا يأخـذ الدين ، ولا التقاليد والعادات ، ولا اللغة ، ولا مقومات الحياة فى الجماعة الخاصة على وجه العموم ، ولا تاريخها وما انطوى عليه من أحداث كان لها أثرها فى خلق شخصيتها ، الاعتبار الأول فى التوجيه . وبالأحرى يجب — تمكينا لمعنى الديمقراطية فى التربية — أن تغفل هذه المعانى أو تهمل ، على الأقل من الوجهة الرسمية ومن المباشرين الرسميين لشئون التعليم

وقد برز هذا الاتجاه اللاقومى فى التربية بعد الحرب العالمية الأخيرة فى صورة جديدة وأخذ طريقاً رسمياً بين حكومات العالم المختلفة ، واحتضنته مؤسسة الثقافة والتعليم والتربية التابعة لهيئة الأمم المتحدة ( اليونسكو )

لكن مما يأخذه بعض المربين على هذا الاتجاه أنه لا يعدو دائرة الأمل إلى واقع حياة الأمم على السواء . ويعللون ذلك بأنه ما دامت هناك أمم كبرى وأمم صغرى . ما دامت هناك

قوة مادية لها السلطان فى التوجيه وقيم أخرى معنوية باقية فى دائرة «المثل» التى لا ظل لها فى الوجود الواقعى سوف لا يتحقق معنى الأخاء والمساواة ، وبالتالى لا يتحقق السلام العالمى الذى هو الهدف الموعود لمذهب « عالمية » فى التربية والتوجيه

على أن بعضا آخر من المربين لا يحسن الظن فوق هذا بدوافع هذا الاتجاه ، ويرميه بأنه وسيلة من وسائل الخداع التى تستعملها الدول الكبرى وهى تلك التى لها القوة المادية فى الصناعة والاقتصاد ، ولها القوة العلمية كذلك لاستغلال الأمم الصغرى وهى المختلفة عنها فى هذه النواحى من الحياة ، لكن لها ثروة كبيرة فى المواد الأولية

وهذا البعض يحاول أن يدلل على سوء ظنه من واقع الأمم الكبرى نفسها ، فيذكر أن الأمم الكبرى ـ سواء عن طريق الحكومات فيها أو عن طريق الجمعيات المختلفة هناك ـ تعنى بالاتجاه القومى فى التربية ، تعنى فى توجيه الناشئة بمقومات هذا الاتجاه ، وهى الدين ، والتقاليد ، واللغة وتراثها الماضى الذى يتمثل نمط تفكيرها وتاريخ تطورها كجماعة خاصة

حتى العادات التى لا تتفق على الاطلاق مع النزعة العالمية ـ كما هو الحال فى أمريكا وانجلترا وجنوب أفريقيا من التفريق بين البيض والملونين فى المعاملة والتقدير ـ لا تلق معارضة جدية من السلطات الرسمية هناك ، وهذه السلطات بينها تدعو الشعوب الأخرى إلى تطبيق الاتجاه العالمى فى معاهدها التعليمية .

ويقولون إن من يزر كلية « ايتون » بانكلترا يدرك ادراكا واضحا عناية القائمين على التوجيه فيها بعناصر القومية فى التربية من دين البلد ، وتقاليده ، والتاريخ الماضى له . فطلاب هذه الكلية ـ وهم أبناء الطبقة الارستقراطية فى انجلترا ـ يفتتحون الدروس اليومية كما يختتمونها بالصلاة فى كنيستها التقليدية

وجامعة اكسفورد ترجع شهرتها فى الغالب إلى رعاية التقاليد فى كثير من نظمها ، والانكليز عرفوا على العموم بالحرص على التقاليد . وقصر ثقافتهم اللغوية على الوطنية مظهر من مظاهر هذا الحرص . إذ قلما نجد بين المثقفين فيهم من يجيد لغة أجنبية أخرى

مثل هذه الظواهر تحيط الاخلاص للنزعة العالمية فى التربية من جانب الأمم الكبرى ببعض الشك عند من لا يحسن الظن من المربين بدوافع هذه النزعة ، وتجعله يتساءل فى حيطة : أليس أولى بالأمم الضعيفة ألا تزيد فى عوامل ضعفها بالتحلل أو بالخروج عن مقوماتها الذاتية كجماعات خاصة ؟

إن كيان الأمة ـ كجماعة ـ يعتمد على تاريخها واتجاهها الخاص فى التفكير ، ودينها ولغتها وتقاليدها أكثر مما يعتمد على مصدر الثروة المادية فيها وعلى موطنها الجغرافى الخاص . فان هى عملت على اغفال هذه المقومات فى التنشئة والتربية أصبحت أفرادا منثورة أو انقسمت إلى طوائف متعددة تختلف حينئذ فى الانتساب إلى اتجاهات فكرية متعارضة وتتبع مذاهب مختلفة فى السلوك وتقدير قيم الحياة .

الاتجاه العالمى أمل يجب أن نباركه فى حيطة وحذر . ولا غنى لنا عن الأخذ بالاتجاه القومى فى تربيتنا كشعوب صغيرة ، لا اقتداء بواقع الأمم الكبرى ، ولكن محافظة فحسب على كياننا ووجودنا الخاص

وإن فكرة هذا المؤتمر الثقافى وعقده من ممثلى الشعوب العربية لمناقشة الأسس التربوية السليمة فى توجيهها مشتقة من الرغبة فى الحرص على هذا الكيان الخاص

ومقومات شعوبنا هذه كأمم تعيش فى جو عربى اسلامى تتصل اتصالا وثيقا بالدين والتقاليد واللغة العربية وأدبها ، وبالفكر الاسلامى واتجاهاته ، وبتاريخ الأطوار السياسية التى تتعلق بنظم الحكم والتغييرات الداخلية وعوامل هذا التغيير فى الأمة الاسلامية . وبعبارة أخرى تعتمد مقومات هذه الشعوب على ماضيها فى المعرفة والفكر والتاريخ . وذلك مايمثله التراث الاسلامى

والأزهر منذ وجوده ـ فى النصف الثانى من القرن العاشر الميلادى ـ يعنى بهذا التراث الاسلامى : يعنى بالدين فى صوره المختلفة ، إن فى دائرة العقيدة ، أو التشريع ، أو السلوك ، ويعنى باللغة العربية وما يتصل بأسلوبها وأدبها ، ويعنى بدراسة الحركات السياسية الاسلامية منذ الدعوة إلى الاسلام حتى تدخل النفوذ

الأوربي في توجيه سياسة البلاد الاسلامية في الوقت الحاضر .

بل ذهب بعض علماء الأزهر في الحرص على هذا التراث والعناية به إلى حظر دراسة أية مادة أخرى لا تتصل بالاسلام نفسه وإن اشتغل بها كثير من علماء المسلمين في كل العصور ، وكان لها أثر في مجال الفكر العربي الاسلامي .

واستمر هذا البعض من العلماء على هذا الحظر مدة طويلة إلى بداية الربع الأخير من القرن التاسع عشر . ومن أجل ذلك رمي بالجمود مرة والتعصب مرة أخرى . وربما كان لهذا الحظر على هذا النحو - مضافا إلى عوامل أخرى سنذكرها - أثر في تضييق المجال أمام الثقافة الاسلامية

ولم يكن موقف هؤلاء المتشددين إلا إسرافا في الغيرة على التراث الاسلامي . فالأزهر يحق موطن الدراسة القومية في الشرق الاسلامي . ولقد كان مصدراً للحركات السياسية الوطنية في مصر وغيرها من البلاد العربية ، كما كان مدرسة لتخريج زعماء الفكر وقواد النهضات التحريرية من النفوذ الاستعماري في العالم الاسلامي .

وليس ذلك لأنه كان المعهد الوحيد أو الرئيس في القرن التاسع عشر لنشر الثقافة والتعليم في مصر ، بل لأنه كما ذكرنا مصدر الثقافة القومية .

ارتبط الأزهر بهذه الثقافة الاسلامية ارتباطاً عرفت به في العالم الاسلامي حتى صار تلازمهما في تصور الشعوب الاسلامية الأخرى أمراً واضحاً . إن ذكر الأزهر ذكرت الدراسات الإسلامية، وإن أشير إلى الثقافة الاسلامية عرف الأزهر كمصدر لها

والأزهر إن تطاول على غيره من معاهد العلم في الشرق بهذه الصلة في معرض الاشادة بالمحاسن ، فهذه الصلة نفسها قد جرت عليه كثيراً من المتاعب ، كانت سبباً في محاربته وتضييق الخناق عليه

فالاستعمار الأوربي للشعوب الاسلامية اتخذ وسيلتين رئيسيتين للوصول إلى تحقيق هدفه :

(أ) عمل على كبت النزعة القومية في الشعوب الاسلامية أينما وجدت هذه النزعة ، في التعليم والتشريع ، أو في مجال الاقتصاد وميدان الصناعة ، أو في دائرة العادات والتقاليد .

(ب) ساعد على نشر الثقافة الغربية في هذه الشعوب عن طريق ترويج اللغات الأوربية بشتى الوسائل وحمايتها من منافسة اللغة العربية لها وهي اللغة الوطنية ، وكذا عن طريق تمكين الفكر الأوربي من أن يأخذ طريقه نحو السيطرة على توجيه الجماعات الشرقية الإسلامية .

والذي يمنينا من ذكر الوسيلة الأولى بيان أنه : لماذا كان الأزهر هدفاً لاضطهاد غير مباشر من حملة الاستعمار الغربي ...

أخذ اضطهاد الأزهر صوراً عديدة : أكثر لسان الاستعمار من الحديث أولا عن جموده وتعصب رجاله وتشددهم في تعصبهم ؛ ثم تطور هذا الحديث إلى ذكر أن الأزهر يبعد قاصديه عن الحياة العامة أو يحول بينهم وبين الانتفاع بالحياة المادية والتمتع بالوجاهة الاجتماعية ، ثم انتقل إلى ادعاء أن الأزهر عقبة في تقدم مصر وسيرها نحو المدنية الأوربية أو الأمريكية . ولا زلت أذكر قصة تلك الآنسة الفلسطينية التي طلبت في عام سابق على العام الماضي معلومات عن الأزهر واتجاهاته التربوية والتعليمية كي تستعين بها على إعداد رسالتها في قسم الماجستير بالجامعة الأمريكية بالقاهرة . وأدهشني منها أول سؤال وجهته إلي وهو : هل الأزهر حقيقة عقبة في طريق رقي مصر ... فلما سألتها عن تحديد مظاهر ذلك أجابتني بأنها قرأت مضمون السؤال فقط في كتاب تربوي حديث لأستاذ أمريكي .

وأثرت فعلا هذه الحملة المغرضة على الأزهر وعلى المنتسبين إليه وحالت بين رجاله والمساهمة في الحياة التعليمية في مصر في المعاهد الأخرى غير المعاهد الدينية ، واضطر كثير منهم تحت ضغط هذه الحال إلى الانزواء عن الحياة العامة والاحتكاك بغيرهم على مسرح عام .

وهذا الذي نسب إلى الأزهر في مصر من جمود وتعصب وكونه عقبة في طريق التقدم رمي به جامع الزيتونة في تونس وما شاكله في مراكش وبغداد ودمشق وأم درمان من معاهد الثقافة الإسلامية .

ولم يقف الأمر في محاربة هذه المعاهد عند حد تصويرها بهذه الصورة المنفرة ، بل اتخذ معها عمل ايجابي آخر هو محاولة الحيلولة

دون قوم بعثات من البلاد الاسلامية التى لم يكن بها ما يشبه الأزهر فى نظامه وهدفه إلى مصر لتلتحق بالأزهر وتتم دراستها فيه . وإن لم تأخذ هذه المحاولة صورة المنع الواضحة . فوسيلتى مثلا أنشأ أيام حكمه معهداً اسلامياً فى « هرر » له مظاهر نظم التعليم فى الأزهر وأرسل إليه طائفة من أبناء المسلمين فى ليبيا بجانب أبنائهم فى الحبشة وأريتريا والصومال الايطالى .

والرحالة الألمانى « بول أشيد » يتحدث فى كتابه — ( الاسلام قوة الغد ) الذى أخرجه فى سنة ١٩٣٧ بعد رحلة ست سنوات فى البلاد الاسلامية — عن مكانة الأزهر كموطن للثقافة الاسلامية ومعقل للحركات الوطنية التحريرية من الاستعمار الأوربى ، وبعده وأمثاله فى شمال أفريقيا والبلاد الاسلامية عاملا من عوامل ثلاثة — لو نجت من الاضطهاد الغربى — تقوم عليها النهضات الاسلامية وقوة العالم الاسلامى فى غده . والعاملان الآخران فى نظره هما : قوة النسل فى الشعوب الشرقية ، والثروة الاقتصادية الكامنة فى أراضيها .

خرج الأزهر عن عزلته رويداً رويداً منذ بداية القرن العشرين وطلبت منه المساعدة الرسمية فى الوزارات والمصالح الحكومية المصرية ، وعلى الأخص فى وزارة المعارف . وأظهر المتخرجون فيه أمانة واتقاناً وحسن أداء فيما يقومون به من عمل هناك ، حتى فيما لم يكن متصلاً بالمواد الأساسية فى ثقافتهم ، كعملهم فى مصلحة الأموال المقررة بوزارة المالية .

ونرجو أن يكون طلب المساعدة الرسمية من الأزهر وليد تصحيح الفهم عنه كمعهد تمثل الثقافة فيه الاتجاه القومى ، وليس وليد الحاجة التعليمية أو السياسية . عندئذ يكون تفاؤلنا بمستقبل النهضات الوطنية عندنا فى الشرق العربى ليس من قبيل السراب الخادع .

إن بالأزهر الآن أكثر من ألفين من طلاب البعوث الوافدة إليه ينتسبون إلى أكثر من عشرين موطن اسلامى ويتكلمون شتيتاً من اللغات ولهم عادات مختلفة ، ولكن لغتهم المحببة هى العربية ، ودينهم المعتقد هو الاسلام ، وتقاليدهم المفضلة هى المتصلة بالأمة الاسلامية .

الأزهر يمكن أن يساهم مساهمة فعالة فى دفع النهضة الشرقية الوطنية خطوات إلى الأمام لو أزيلت من طريقه العقبات .

إن المرحوم الشيخ محمد عبده اشتغل بالسياسة ، واشترك فى الحركات الوطنية الاستقلالية فى الفرق الثورية ، واطلع على الفكر الأوربى ، لكن أثر أخيراً فى دفع الحركات الوطنية الاستقلالية فى الشرق عامل التربية ، وأثر فى التربية أن تكون قوية ، وأثر فى عناصرها أن تكون ذا صلة بالتراث الاسلامى ، ورجا أن يكون الأزهر قواما على هذا التراث .

• • •

الأزهر لا غنى عنه ، وهو باق فى العالم الاسلامى ما بقى الاسلام فى تصور الشعوب الإسلامية وما بقى عقيدة لأبنائه . فبدلا من أن توضع العقبات فى طريق رسالته — وهو الخطر بعينه على الاسلام وعلى الشعوب الإسلامية والعربية — يجب أن تتضافر القوى كلها فى صدق واخلاص لتمكينه من أداء رسالته .

والأمل معقود على الفاروق قائد النهضة العلمية والتعليمية والدينية .

محمد البهى
أستاذ الفلسفة الدينية بكلية
أصول الدين بالأزهر

إدارة البلديات العامة
مجاري

تقبل العطاءات بمجلس بور سعيد البلدى حتى ظهر يوم ١٠ / ١٠ / ١٩٥٠ عن توريد أدوات لازمة لورشة ومحطة المجارى وتطلب الشروط والمواصفات من المجلس نظير ٢٠٠ مليم خلاف أجرة البريد ٥٨٥١